يوم البعث

البعث

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

البعث مشهد من مشاهد يوم القيامة التي ذكرها القرآن الكريم، ذلك أننا سنقوم دفعة واحدة من الأرض، أي: سنبعث مرة واحدة إلى الحشر.

ما معنى الحشر؟ معناه محاولة إدخال أشياء متعددة في مكان ضيق لا يتسع لها، لأن الناس الذين دفنوا في الأرض من عهد آدم حتى يوم القيامة سيخرجون منها دفعة واحدة، وبما أننا سنُبعث من نفس الأرض التي دفنا فيها، وسنبعث في لحظة واحدة فسيكون الازدحام رهيباً.

يخرج الناس من الأرض يوم البعث، بكل صفاتهم وأوصافهم التي كانوا عليها في الدنيا، وبعض الناس يتساءل: كيف يمكن ذلك، كيف يمكن أن تخرجنا الأرض بذواتنا مرة أخرى بعد أن اختلطت المكونات؟

ويقول هؤلاء الناس: لنفرض أن إنساناً مات ودفن في مكان ما، ثم زرعت شجرة في هذا المكان فإنها ستتغذى على العناصر المكونة لجسد الميت المدفون تحتها، فإذا طرحت هذه الشجرة ثماراً، وجاء إنسان وأكل من هذه الثمار التي فيها عناصر من إنسان آخر مدفون تحت هذه الشجرة، واختلطت العناصر بعضها البعض، فالعناصر التي في جسد الإنسان الذي أكل من ثمار تلك الشجرة هي من إنسان آخر، ثم بعد ذلك أولاد هذا الرجل سيأخذون من عناصر الجسد الآخر، وكذلك أولادهم وأحفادهم وتصبح العناصر مختلطة وفي أجساد متفرقة، كيف يجمعها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة في جسد صاحبها مرة أخرى؟!

نقول لهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام: إن تفكيركم تنقصه الحكمة والعلم، ذلك أن كل إنسان مخلوق من طين، وقد انتهى العلم التجريبي أو العلم المعملي، إلى أن جسد الإنسان مكون من مجموعة عناصر هي ذاتها عناصر الطين، وأن أولها الكربون، والأكسيجين، وآخرها المنجنيز، ذلك هو الجسد البشري، والجسد

البشري قوته من عناصر الأرض نفسها، أو مما تنتجه الأرض، ولذلك فإن الإنسان إذا أكل كثيراً ترهل جسده، وزاد وزنه، من نفس جنس المواد المخلوق منها الجسد، أي أن الإنسان إذا أكل بشراهة وزاد وزنه عشرين كيلو مثلاً، فإن هذه الزيادة لا تكون من مادة غريبة على الجسم، ولكن من نفس مادة الجسم، لأنها من الطين، والإنسان مخلوق من طين، وإذا لم يأكل الإنسان انخفض وزنه من نفس عناصر الجسم أيضاً، هذه الزيادة والوزن لا تتعلق بالتكوين الدقيق للإنسان، ولكنها مواد تُفْقَد وتتكون حسب الطعام الذي يتناوله كل منا.

نعم.. إننا جميعاً مخلوقون من عناصر الأرض، ولكن لكل منا خلقاً مميزاً، أي: أن نسب عناصر تكوين كل منا تختلف عن الآخر، فبعضنا يزيد في جسمه الحديد، وبعضنا ينقص. والبعض الآخر يزيد فيه المنجنيز، والبعض الآخر ينقص. ولذلك فإنك تسمع أن بعض الناس مثلاً قد ذهب للطبيب فقال له: إن عندك نقصاً في الحديد، أو في البوتاسيوم، ويعطيه الدواء الذي يكمل له هذا النقص.

إذن.. فعناصر أجساد الناس كلها فيها ذات العناصر الموجودة في الأرض، ولكن النسب تختلف من واحد إلى الآخر، وتكوين هذه النسبة هو الذي يكون كل شخص فينا، وهذا التكوين هو من خلق الله سبحانه وتعالى.

ولذلك إذا أعدت النسب بنفس تكوينها عاد الشخص هو هو إلى الحياة، وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله الخالق سبحانه وتعالى، واختلاف النسب يعطينا عدداً لا نهائيًا من الأشخاص الذين يتميز كل منهم عن الآخر.

إذن.. فاختلاف الشخصيات مبني على اختلاف النسب، وليس على عناصر التكوين التي نشترك فيها جميعاً.

ولكي نقرب ذلك إلى الأذهان، نقول: لنفرض أننا أردنا طلاء منزل، وأتينا بالألوان الأولية الرئيسية: الأزرق، والأصفر، والأحمر، والأسود، ثم بدأنا نعد الطلاء الذي نريده، وجئنا باللون الأزرق مثلاً، ووضعنا فيه ذرة من اللون الأصفر لاختلف، ولو زدنا ذرة أخرى لاختلف عن سابقه، وإذا جئنا باللون الأحمر ووضعنا منه ذرة على الخليط لاختلف، وإذا وضعنا ذرتين لاختلف، فإذا جئنا باللون الأزرق المخلوط بذرتين من اللون الأحمر ثم وضعنا فيه ذرة صفراء أو سوداء لاختلف تماماً عن ألوان التركيبة السابقة.

إذن.. كل ذرة أضيفت أعطتنا لوناً مختلفاً، ولذلك فإن الذي يريد طلاء المنزل، فإنه لا بد أن يقوم بعمل خلطة للبويات كلها معاً، ذلك أنه لو قام بعمل

خلطة كل غرفة على حدة لما استطاع أن يضبط الألوان أبداً، لأنها عملية غاية في الدقة، بل إن اللون إذا تركته يوماً في وعاء فإنك تأتي في اليوم التالي لتجده قد تغير، ولو أنك وضعت ساعة أو صورة أو نتيجة على الحائط ثم رفعتها بعد عدة أيام لوجدت أن اللون خلفها قد اختلف عن بقية لون الحائط، لأن إشعاعات الضوء تتفاعل مع اللون.

فإذا كان ذلك يحدث بالنسبة لقدرات البشر المحدودة، فكيف يمكن أن نتصور قدرة الله تعالى مع خلقه، لا بد أن يكون هناك نسب لا نهائية، لا يقف أمامها عدد مهما بلغ، ذلك لأنه إذا كانت إمكانياتنا الدنيوية نحن لها حدود، وإذا كانت وسائل إدراكنا لها حدود؛ فهذا نظره قوي، وهذا ضعيف، وهذا أضعف، وهذا يسمع دبيب النملة، وذلك لا يسمع دوي القنابل، ولك أن تضع ما تشاء من درجات السمع بين دبيب النملة ودوي القنبلة.

إذن.. فالإدراكات عند البشر تختلف، واختلاف المدرك حجماً ولوناً وتكويناً، هو الذي يُعطي هذه الإدراكات درجاتها من ضعف وقوة، فتعطينا في الدنيا اختيارات بلا حدود، فكيف بما كان من عند الله الخالق سبحانه وتعالى؟

إذن.. فالذين يثيرون هذا الكلام يعتقدون أنه مادامت أجسادنا مخلوقة من الأرض، وما دامت عناصر هذه الأرض هي المكونة لهذا الإنسان ففي حالة عودة الإنسان لباطن هذه الأرض المكونة من عناصر؛ فإن الأجساد ستختلط!!

نقول لهم: لا، إن اختلاف النسب يحفظ لهذه الأجساد خصوصيتها فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُن﴾ عادت هذه النسب بنفس الطريقة التي تكونت بها، أو بنفس الخلق الذي تم أول مرة، فيبعث الإنسان يوم القيامة بجسده هو هو، وبشخصيته هي هي ليحاسب، ولا تأتي الأجساد ولا الشخصيات يوم القيامة وقد اختلطت ببعضها البعض، بل كل منا مميز بتمييز لا يختلط مع أحد غيره، وكل منا سيأتي بجسده هو، وشخصيته هو يوم القيامة، ويُبعث هو هو ليحاسب، فإما أن يُنعم، وإما أن يُعذب؛ وذلك من عظمة الله تعالى وقدرته.

ثم تأتي ساعة البعث ويخرج الناس جميعاً مرة واحدة، ويبعثون من نفس الأرض التي دفنوا فيها، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وبعد أن نخرج من باطن هذه الأرض التي كنا نعيش عليها نساق إلى أرض المعاد.

ذلك لأن أرضنا هذه معدة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث، مدخر فيها أقوات الخلق وأرزاقهم، والحياة فيها تمضي بالأسباب، والخالق سبحانه قيوم على هذه الأسباب، لا يترك كونه لحظة، ولا يغفل عنه برهة، فهو سبحانه إذا شاء ومتى شاء عطل الأسباب لنصرة مظلوم على ظالم، أو للقصاص لضعيف بُغي عليه من قوي طغى بالأسباب وأفسد في الكون.

إذن.. أرض الأسباب هذه تكون قد انتهت مهمتها، ولذلك فهي تُدمر، والخلق يساقون إلى أرض المعاد التي يتم عليها الحساب.

ومن عجائب ذلك اليوم وخصائصه أن الإنسان يرى أولاً ثم يسمع، فقد ذكر في القرآن الكريم السمع قبل البصر، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

وغيرها من الآيات التي تؤكد لنا أن السمع يعمل أولاً في الإنسان، فإذا قربت أصبعك من عين طفل حديث الولادة فإنه لا يحس، وإنما إذا أحدثت صوتاً مزعجاً بجواره فإنه يفزع، كما أن العين تنام، والأذن لا تنام أبداً، ولكن مرة واحدة جاءت العين قبل الأذن في القرآن الكريم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

في هذه الآية وحدها ذكرت العين قبل الأذن.. لماذا؟ لأنه في ساعة البعث وعندما ينفخ في الصور ليخرج الناس من قبورهم أول ما يحدث أنهم يرون، ثم بعد ذلك يسمعون، فهم يرون هذا المنظر الرهيب، والناس تخرج من قبورها والحشر يتم، وتكون الرؤية بالعين، ثم بعد ذلك يبدأ عمل الأذن وتستطيع أن تميز؛ ولذلك فإنه ساعة البعث من القبور أول شيء نرى ونشاهد، ويكون الزحام شديداً لأن كل الخلق الذين عاشوا على هذه الأرض في فترات مختلفة على طول الزمن من عهد آدم إلى قيام الساعة يُبعثون مرة واحدة، لذلك سمي يوم الحشر، لأن الأجسام فيه تحشر حشراً نظراً لكثرة عدد الخلق، ولذلك سمي يوم الحشر، ولا نخرج هكذا جزافاً، بل بنظام دقيق بحيث إن كل واحد منا موكل به ملك مسؤول عنه منذ اللحظة التي يخرج فيها من قبره حتى يبلغ مكانه في أرض الحشر، فكل منا يحمل معه كتابه.

❁ ❁ ❁

صفة يوم البعث!

يوم البعث هو اليوم الذي يبعث الله تعالى فيه الناس من القبور ليحاسبهم على أعمالهم في الدنيا، واليوم عندنا من شروق الشمس إلى غروبها، فهل سيكون يوماً كأيامنا. أم يوماً من أيام الله التي قال الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

ولقد زعم المستشرقون أن هناك تناقضاً في القرآن الكريم، فكيف يمكن أن يكون اليوم ألف سنة، وأن يكون خمسين ألف سنة؟

نقول لهم: إنكم لم تفهموا معنى كلام الله، فالله سبحانه وتعالى هو خالق الزمن، والزمن مخلوق لله، يجعل فيه من الأحداث ما يشاء، ولكن اليوم عندنا محدد من شروق الشمس إلى غروبها.

إذن.. هو يستغرق وقتاً معيناً، ولكن في كواكب أخرى قد يختلف اليوم، فالشمس هناك تكون مشرقة لا تغرب عدة أيام أو عدة شهور، كما أنها تغرب ولا تظهر عدة أيام أو عدة شهور.

إذن.. الزمن نسبي، وهو مخلوق من مخلوقات الله، جعله الله تعالى مقياساً للأحداث التي تقع فيه، فنحن نقيس الأحداث بالزمن، فنقول هذا العمل يستغرق يوماً أو يومين أو ثلاثة إلى آخره، فلكل حدث، ظرف زمان وظرف مكان، ظرف الزمان هو الوقت الذي يستغرقه الحدث، وظرف المكان هو المكان الذي يقع فيه، وإذا خرجنا عن دائرة الأحداث فنحن لا نحس بالزمن، فالإنسان مثلاً حين ينام لا يشعر بالزمن، ولذلك عندما يستيقظ لابد أن ينظر إلى الساعة كي يعرف كم ساعة نامها، أو يعرف ذلك بمقاييس الزمن العامة، كأن يكون قد نام والشمس مشرقة، واستيقظ وقد غابت وجاء الظلام، أو أن يكون قد نام في أول الليل ثم استيقظ وتكون الشمس قد أشرقت، والإنسان لا يحكم الزمن،

ولكن الزمن هو الذي يحكمه، فأنت لا تستطيع أن تبقى شاباً طول حياتك، ولا أن توقف الأحداث التي تمت أو التي ستتم.

إذن.. فالزمن مقياس للأحداث، ولكنه مقياس نسبي وليس مقياساً محدداً، لأنه خاضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى، إن شاء أجراه على خلقه، وإن شاء أوقفه، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى وهو خالق الزمن، يستطيع متى شاء أن يخلق يوماً مقداره اثنتي عشرة ساعة، وأن يخلق يوماً مقداره عام، وأن يخلق يوماً مقداره ألف سنة، وأن يخلق يوماً مقداره خمسون ألف سنة، وأن يخلق يوماً مقداره مليون سنة، فبمقدار الأحداث التي يريد الحق سبحانه وتعالى لها أن تتم، يخلق لها الزمن المناسب لها، ويوم القيامة موجود في علم الله سبحانه وتعالى بكل أحداثه، وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه، وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون، يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى ليوم القيامة أن يحدث الآن حدث، وإذا أراده أن يحدث بعد مليون سنة حدث.

إذن.. فلا نحاول نحن أن نجعل مقاييس يوم القيامة كيوم من أيامنا، ولذلك فمن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه لفتنا في القرآن الكريم إلى أنه لا يوجد عنده شيء اسمه يوم مطلق، ولذلك ورد أن هناك يوماً يساوي ألف سنة، ويوماً يساوي خمسين ألف سنة، حتى نعرف أن الله يخلق الزمن بقدر الأحداث التي يريدها الله سبحانه وتعالى أن تقع فيه، ولذلك إذا قال يوم القيامة، فمعنى ذلك أنه مقدار من الزمن يتسع لكل الأحداث التي ستقع في هذا اليوم العظيم، سواء استغرقت هذه الأحداث عاماً بحسابنا الأرضي، أو استغرقت ألف عام، أو استغرقت أكثر من ذلك أو أقل.

إذن.. فول الحق سبحانه وتعالى لكلمة: ﴿يَوْمٍ﴾، لا نستطيع أن نعرف منه مقدار الزمن الذي سيستغرقه هذا اليوم، فذلك مرتبط بمشيئة الله سبحانه وتعالى، ولكننا نعرف منه أن الحساب لن يتوقف منذ أن تقوم الساعة حتى تتم محاسبة كل الخلق، أي أن الله سبحانه وتعالى لن يأتي في يوم القيامة ويؤجل باقي الحساب إلى يوم تال، ولن تكون هناك فترات للراحة، بل سيمضي الحساب متصلاً كعمل يوم واحد وليست أياما متتالية، وسيبقى الناس في يوم المشهد العظيم حتى يتم حسابهم ثم يضرب الصراط فوق جهنم؛ ليذهب أهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة.

❁❁❁

الدهريون.. منكرو البعث

المتتبع لمنطق إنكار الإيمان يجده كله قائماً على عدم الإيمان بالآخرة؛ وفي هذا آيات كثيرة في سور القرآن الكريم. فماذا قال الكفار؟ وما هو منطق عدم الإيمان؟ يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

هذا هو منطق الكفار وعدم إيمانهم هو إنكار للبعث، وإنكار ليوم القيامة، فلما جادلهم الرسل قالوا؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥].

وقولهم كما جاء في سورة المؤمنون: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقولهم أيضاً في سورة المؤمنون: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وقولهم كما جاء في سورة الصافات: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وقولهم كما جاء في سورة النحل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

هذه الآيات هي قليل من كثير، موجودة في القرآن الكريم عن البعث، تؤكد على أن قضية البعث هي أساس في الإيمان، وأنه ما من كافر إلا وينكر البعث ويتمنى ألا يكون، ذلك أن إنكار البعث كما بينا يطلق للنفس البشرية شهواتها بلا حساب، وإذا كانت قضية البعث هي القضية اليقينية الأولى، فإننا نجد كل المذاهب التي انحرفت عن الإسلام تحاول إنكار العذاب في الآخرة بطرق شتى، فمنها من يُحِلّ بعض المحرمات والمعاصي ليشعر العاصي بشيء من الاطمئنان الزائف، زاعمين أن رحمة الله تحيط بجهنم فلا يعذب فيها أحد من

خلقه!! كل هذا خروج عن المنهج، وهو في الحقيقة محاولة للهروب من تكاليف الإيمان في الدنيا، والحساب والعذاب في الآخرة.

وإذا كان الكافر لا يؤمن بالآخرة، فالموت الذي يراه أمامه كل يوم يملأ حياته بالرعب والفزع، وينغص عليه معيشته، وخصوصاً أنه يرى الموت فيمن يعرف وفيمن لا يعرف، بل يراه في أقرب الناس إليه، وإيمان الفطرة يلح عليه دائماً، وملكات الإيمان التي خلقها الله في نفسه تتصادم مع الكفر الذي ملأ به حياته زيفاً، ولذلك فهو يحاول أن يخدع نفسه دائماً بأنه لا شيء بعد الموت، فهل يكون الإنسان سعيداً إذا وصل إلى ذلك؟

وما معنى الحياة إن كانت تذهب وتنتهي بلا هدف ولا غرض؟! إننا نولد ونموت في عالم كله ابتلاءات للنفس، فلو أنه ليس هناك بعث لكان الكافر بالله هو الفائز في هذه الحياة الدنيا، لأنه أعطى لنفسه كل شهواتها وارتكب كل المعاصي، ثم بعد ذلك مضى ولا شيء عليه!!

ولكن هل يمكن أن يحدث هذا؟ هل الله سبحانه وتعالى يخلق كل هذا الكون ليتمتع به من يكفر بالله ورسله؟ وهل الطائع الذي يحمل نفسه على منهج الله، ويحرم نفسه من الشهوات وينأى بها عن المعاصي، يمضي هو الآخر بعد ذلك ولا شيء له! إن هذا المنطق يتصادم مع الغاية من الخلق نفسه، ويهدم أساس وجود الحياة الدنيا. وأمنية كل كافر هي ألا يكون هناك يوم للحساب، وألا تكون هناك آخرة، لكنه لو تأمل بالمنطق لوجد أن هذا الكلام لا يتمشى مع العقل، وأنه مادام هناك خالق ومادام هناك كون فلا بد أن تكون هناك غاية، ولا توجد غاية لهذا الخلق إلا إذا وجدت تكاليف يميز الله تعالى بها الصالح من الطالح، وإذا كان ذلك كذلك؛ فلابد من ثواب وعقاب، ويوم القيامة هو يوم الجائزة يجزى الله تعالى فيه من أحسن، ويعاقب من أساء.